الفصل السّادس

الأسرة المسلمة
تكوينها ونظامها وصيانتها ومعالجة مشاكلها

التمهيد:

الأسرة أصل الكيان الإنساني

إن الأسرة أصل راسخ من أصول الحياة البشرية[1]. ومهما اختلفت ضوابطها وقيودها من مجتمع لآخر، فلن تختلف النظرة إليها كضرورة لا يستغني عنها شعب ولا جيل. ومن هنا يعد الهجوم على الأسرة في هذا العصر نزعة طائشة تحاول مسخ الفطرة وإخفاء الحقيقة. وكل ما جناه المفتونون بالحياة الشريدة أن جلبوا الشقاء لأنفسهم والوهن لمجتمعاتهم.

إذ أن الأسرة رغبة نابعة من الفطرة، ولا يمكن للناس أن يسعدوا إن عاشوا بفطرة شائهة وحقائق مبدلة.

فإذا حُرم الإنسان النشأة في أسرة امتد الخلل إلى آفاق حياته وأحس بالظمأ إلى رحيق الحنان والألفة، وبالشوق إلى أن يضمه جناح الأسرة، مما يدل على أن حياة الأسرة ضرورة لا يمكن التحول عنها بحال.

---

(١) الأسرة في الإسلام.. للدكتور مصطفى عبد الواحد ص: ١٣-١٤.

obeikandl.com

البحث الأول:

الأسرة وضرورتها للحياة الإنسانية[١]

حثَّ الإسلام على تكوين الأسرة ودعا الناس إلى أن يعيشوا في ظلالها، إذ هي الصورة الطبيعية للحياة المستقرة التي تلبي رغائب الإنسان وتفي بحاجاته. وهي الوضع الفطري الذي ارتضاه الله لحياة الناس من فجر الخليقة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[٢] فحياة الإنسان فرداً فذاً، يهجّر وحده في صحراء الحياة، ويواجه مفرداً أجواءها الغائمة، أمر لا يراه الإسلام ولا يرضاه. لأن في فطرة الإنسان الحاجة إلى الأسرة وجوّها الظليل، وفي طبيعة الحياة أنها لا تواجه بالجهد المفرد الضئيل.

بل تحتاج إلى تناصر القوى وتبادل المشاعر، والتعاون على حمل الأعباء ومواجهة الصعاب، مما لا يفي به إلا الأسرة.

تلك فطرة الحياة والأحياء، والإنسان مطالب باحترامها والنهج على هداها. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٣].

من وظائف الأسرة:

وفي دعوة الإسلام إلى حياة الأسرة وترغيبه في إقامتها تبرز لها وظائف جليلة. وتظهر ثمرات ذات أثر فاعل في حياة الفرد والمجتمع؛ إذ هي نعمة من نِعَم الله وآية من آياته، هيأها للعباد واختارها لهم لتستقر بهم الحياة وتصفو من الأكدار.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم

(١) المصدر السابق: الأسرة في الإسلام ص: ١١-١٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] إن المشاعر والعواطف التي تنمو في جو الأسرة غذاء لا تستغني عنه النفس ولا يكفيها سواه. مما يجعل الأسرة نعمة ورحمة تقي التعاسة والشقاء؛ ويجعلها فضلاً من الله كالطيبات من الماء والغذاء.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[٢].

والإنسان مفتقر إلى تلك النعمة في مراحل عمره كلها. فالطفل لا بد له من النشأة في أسرة، وإلا نما مبتور العواطف شاذ السلوك.

وحاجته إلى أمه وأبيه حاجة أصيلة، لا يغنيه عنها حياطة أخرى أو تعهد.

كذلك يحتاج الإنسان إلى الأسرة شاباً ورجلاً وكهلاً لا يجد رعاية في غيرها ولا يرضي فطرته بديلاً عنها، فيظل مفتقراً أبداً إلى حماها متعطشاً إلى عواطفها ومشاعرها.

وللأسرة كذلك وظائفها الخاصة في ميدان التربية لا يغني غناءها عامل آخر.

فهي العامل الوحيد للحضانة والتربية المقصودة في المراحل الأولى للطفولة.

ولا تستطيع أية مؤسسة عامة أن تسد مكان المنزل في هذه الشؤون.

ولا يقصد في دور الحضانة أو الكفالة التي تنشئها الدولة والهيئات لإيواء الأطفال في مراحلهم الأولى، إلا تدارك الحالات التي يحرم فيها الطفل من الأسرة أو تحول فيها ظروف قاهرة بين الأسرة وقيامها بهذه الوظيفة.

ولا يتاح لهذه المؤسسات، مهما حرصت على تجويد أعمالها أن تحقق ما يحققه المنزل في هذه الأمور.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة النحل: الآية: ٧٢.

وعلى الأسرة يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية والدينية في جميع مراحل الطفولة، بل في المراحل التالية لها كذلك.

وفي الأمم التي تسير معاهدها الدراسية على نظام الحياد في شؤون الدين والأخلاق الدينية، فتنفض يدها من جميع الأمور التي تتصل بهذه النواحي، كفرنسا والأمم التي نَحَتْ نحوها، في هذه الأمم وفي تلك يقع عبء التربية الدينية كاملاً على عاتق الأسرة وحدها. وبفضل الحياة في الأسرة يتكون لدى الفرد الروح العائلية والعواطف الأسرية المختلفة، وتنشأ الاتجاهات الأولى للحياة الاجتماعية المنتظمة.

فالأسرة هي التي تجعل من الطفل إنساناً مدنياً، وتزوده بالعواطف والاتجاهات اللازمة للحياة في المجتمع وفي البيت.

البحث الثاني:

حماية الإسلام للأسرة

اهتم الإسلام بحماية الأسرة من آفات الفساد والهدم، وأقام سداً يعصمها من البوار والتلف.

وحماية الأسرة في الأصل من واجبات راعيها، الذي عليه أن يدفع عنها السوء وأن يقيها المهالك والشرور.

قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُم راع وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤولٌ عن رعيته...**»[(١)].

على الرجل أن يستيقظ لأعبائه[(٢)]، فيحدّ بصره ويرهف سمعه ولا يغفل،

(١) البخاري في صحيحه ج ٢/ ٦ وج ٣/ ١٩٦ وج ٤/ ٦، وج ٧/ ٣٤، ٤١، وج ٩/ ٧٧، في الصحيحة برقم ١٦٣٦.

(٢) هذا البحث للدكتور مصطفى عبد الواحد، في كتابه الأسرة في الإسلام ص: ٨٧-٩٠، ط. مكتبة المتنبي - القاهرة.

ويتلمّح عواقب الأمور، فلا يتهاون ولا يعبث، ولا يدع بيته تجتاحه الرياح اللوافح والعواصف المدمرة.

عليه أن يرعى زوجته، فلا يذرها تنحرف وهو شاهد، ولا تعبث وهو لاهٍ ساهٍ ولا يُملي لها حتى تلج ميادين الشرّ وساحات الهدم، بل لا بد من وعي الرقابة وحسن القيادة وتأمين الطريق، والمبادرة قبل استفحال الخطر واستمكان الداء.

وعليه أن يحسن قيادة ذريته، وأن يتحرى في تنشئتهم مناهج الاستقامة وخصائص الفطرة، وأن يحميهم من مفاسد البيئة وأمراضها، وأن يزودهم بطاقات التحمل والكفاح ويجهزهم بأسلحة النضال والفوز وأن يكون قدوة لهم في السلوك والاتجاه.

ثم راعى الإسلام حماية الأسرة من الخارج .. حمايتها من جراثيم البيئة وعدواها، وحجب أفرادها من التعرض للإغراء والاختطاف، حتى لا تتصدع الأسرة وتنهار.

فالزوجة يمنع الإسلام عنها تيار الفتنة، فينهى عن إفسادها وتحريضها على زوجها، وتأميلها بحياة أرغد وعيش أهنأ. فإن فاعل ذلك شرير ملعون.

قال النبي ﷺ: «**ليسَ منا مَن خبَّب امرأة على زوجها**» رواه أبو داود[1]. أي: أفسدها عليه.

وهذا إيصاد لباب واسع يجلب للأسرة الشقاء والخراب، حين تتعرّض الزوجة لدعوات الإغراء وتتطلع إلى إلحاح الفتنة، فتندفع لهدم بيتها وتنخدع بالأماني والأحلام.

وفي سبيل ذلك يمنع عنها أسباب الغواية، ويطفئ مبادئ الشرور.

---

(١) صحيح سنن أبي داود، برقم ١٩٠٦.

البحث الثالث:

تأسيس الأسرة الصالحة من العبادات الإسلامية

قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾(١).

وقال أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾(٢).

ولم يتزوج عيسى عليه السلام، لأنه لم يتيسر له الجمع بين النكاح والتخلي والتفرغ للعبادة فاحتاط لنفسه.

وقال عز وجل: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقال ﷺ: «**يا معشرَ الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ**»(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**النكاح من سنّتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني**»(٥).

وقال ﷺ: «**تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى**»(٦)؛ لأن الرهبانية تنافي الفطرة الإنسانية، والطبيعة البشرية.

وقال الرسول ﷺ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**»(٧). فلا يأكل إلا الطعام الحلال، ولا يكسب رزقه إلا من الأعمال التي أحلها الله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٢.
(٤) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٩٧٥ وعزاه لأحمد والشيخين، وأصحاب السنن الأربعة.
(٥) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٨٠٧، وعزاه لابن ماجه، انظر الصحيحة (٢٣٨٣).
(٦) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٤١، وعزاه للبيهقي، انظر الصحيحة ١٧٨٢.
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٢/ ١٦١، والهيثمي في مجمع الزوائد ج ٤/ ٢٧٢، وهو في الأحاديث الصحيحة ج ٢/ ٢٠٠.

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[١].

البحث الرابع:

نظام الأسرة في الإسلام[٢]

١ - حقائق وتأملات:

يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٣].

إنه الخطاب «للناس».. بصفتهم هذه، لردهم جميعاً إلى ربهم «الذي خلقهم»... والذي خلقهم «من نفس واحدة»... «وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء».

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة هي حقائق كبيرة جداًن وعميقة جداً، وثقيلة جداً... ولو ألقى الناس أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وبنقلهم من الجاهلية - أو من الجاهليات المختلفة - إلى الإيمان والرُّشد والهدى وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة «بالناس»، و«بالنّفس»..

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى:

١ - إنها ابتداء تذكر «الناس» بمصدرهم الذي صدروا عنه؛ وتردهم إلى

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٩٣، وعزاه لمسلم وللبخاري في الأدب المفرد، ولأصحاب السنن الثلاثة.

(٢) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فايز ص: ٤٩-٧٢، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض... هذه الحقيقة التي ينساها «الناس» فينسون كل شيء! ولا يستقيم لهم بعدها أمراً!

إن الناس جاؤوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه... فمن الذي جاء بهم؟ إنهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم، فقد كانوا قبل أن يجيئوا - عدماً لا إرادة لهم - لا إرادة لهم تقرر المجيء أو عدم المجيء.

فإرادة أخرى - إذن - غير إرادتهم، هي التي جاءت بهم إلى هنا... إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي قدّرت وشاءت أن تخلقهم. إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي رسمت لهم الطريق، وهي التي اختارت لهم خط الحياة... إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي منحتهم وجودهم، ومنحتهم خصائص وجودهم، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه من حيث لا يشعرون! وعلى غير استعداد؛ إلا الاستعداد الذي منحتهم إياه تلك الإرادة التي تفعل ما تريد. إن هذه الإرادة التي جاءت بهم إلى هذا العالم، وخطَّت لهم طريق الحياة فيه، ومنحتهم القدرة على التعامل معه، هي وحدها التي تملك لهم كل شيء، وهي وحدها التي تدبر أمرهم خير تدبير. وأنها هي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لهم منابع حياتهم، وأن تُشَرِّع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وأن تصنع لهم قيمهم وموازينهم، وهي وحدها التي يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف في شأن من هذه الشؤون، فيرجعون إلى النهج الواحد الذي أراده الله رب العالمين.

٢ - كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في وشيجة واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1]. ولو تذكر الناس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسِّهم كل الفروق الطارئة، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرّقت بين أبناء

(١) سورة النساء، الآية: ١.

«النفس الواحدة»، ومزّقت وشائج الرحم الواحدة. وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى..

٣ - والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.. أن الزوجة إنسان كامل الحقوق والاعتبارات... وعلى هذا فليست المرأة كما يتصورها الغرب «ملهاةً» يعبث فيها، وهم يتصورون في المرأة شتى التصورات السخيفة، وبعضهم يراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء... بل هي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة...

ولقد خبطت البشرية في هذا التّيه طويلاً، جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الجهة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمّل لشطر، وإنهما ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

٤ - كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة. فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة. فخلق ابتداءً نفساً واحدة، وخلق منها زوجها، فكانت أسرة من زوجين.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1]... ولو شاء الله لخلق في أول النشأة رجالاً كثيراً ونساءً، وزوّجهم، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق، لا رحم بينهم من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا صورها عن إرادة الخالق الواحد، وهي

(١) سورة النساء، الآية: ١.

الوشيجة الأولى؛ ولكنه - سبحانه - شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها، أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بهما من وشيجة الربوبية، وهي أصل وأول الوشائج، ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى - هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة - ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم يرجون ابتداء إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة «عقيدة التوحيد» أن لا إلٰه إلا الله..

ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في النظام الإسلامي، وهذه العناية بتوثيق عراها، وتثبيت بنيانها، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء - وفي أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة - وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى.

وقد اهتم التشريع الإسلامي في القرآن الكريم والسنة النبوية اهتماماً كبيراً، في إظهار تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي... وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناءٌ قويٌّ، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة، التي تلقتها في الجاهلية - كل جاهلية - ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ودفع هذه النظرة الهابطة عن واقع حياة المرأة!!

إن أحكام نظام الأسرة لا تُذكر مجردةً، كلا! إنها تجيء في جو يشعر القلب البشري أنه يُواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلٰهي للحياة البشرية، وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي. وأن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة؛ موصول بإرادته وحكمته ومشيئته في الناس، ومنهجه لإقامة الحياة على هذا النحو الذي قدَّره وأراده لبني الإنساني. ومن ثم هو موصول بغضبه ورضاه، وعقابه وثوابه، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال!

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بعظم هذا الأمر وخطورته؛ كما يشعر أن

كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله سبحانه.

وأن الله يتولى بذاته - سبحانه - تنظيم حياة هذا الكائن، والإشراف على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئةً خاصة تحت عنايته، وإعدادها - بهذه النشأة - للدور العظيم الذي قدَّره لها في الوجود! وإن الاعتداء على هذا المنهج يُغضب الله، ويستحق صاحبه شديد العقاب.

إن هذه الأحكام تذكر بدقة وتفصيل. ثم تجيء التعقيبات الموحية بعد كل حكم، وأحياناً في ثنايا الأحكام، منبئة بضخامة هذا الأمر وخطورته، وتلاحق الضمير الإنساني ملاحظة موقظة محيية موحية. وبخاصة عند التوجيهات التي يناط تنفيذها بتقوى القلب وحساسية الضمير، لأن الاحتيال على النصوص والأحكام ممكن بغير هذا الوازع الحارس المستيقظ.

٢ - قاعدة التكوين الأولى:

إن دستور الأسرة جانب من التنظيم للقاعدة الركنية التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، ويقوم عليها المجتمع الإسلامي. هذه القاعدة التي أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً، نراه متناثراً في سور شتى من القرآن، محيطاً بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى.

إن النظام الاجتماعي الإسلامي نظام أسرة، بما أنه نظام ربّاني للإنسان ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوّماتها. وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة. . . تبدو هذه النّظرة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] ومن قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] . .

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩. (٢) سورة يسٓ، الآية: ٣٦.

openkanz.com

ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم البشرية جميعاً: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[١].. ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[٢]. ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين، لا لتجمع بين مطلق الذكران ومطلق الإناث، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[٣].. ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[٤].. ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾[٥].. ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا﴾[٦].

فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تلبّي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان. ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون، على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ومن بينه هذا الإنسان...

والأسرة هي الحصن الطبيعي الذي يتولى حماية البراعم الناشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة؛ وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة، وتفسرها وتتعامل معها. والطفل الإنساني هو أطول الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى.

ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته. ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٦) سورة النحل، الآية: ٨٠.

الأرض هو أضخم دور... امتدت طفولته فترة أطول ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل.

ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لأي شيء آخر. وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة.

وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوض عنها، ولا يقوم مقامها، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته، وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النظام الفطري الصالح القويم الذي جعله الله للإنسان، أو التي اضطرت بعض الدول الأوروبية اضطراراً لإقامتها بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية التي تخوضها الجاهلية الغربية، والتي لا تفرّق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام! أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشؤوم الذي يضطر الأمهات إلى العمل تحت تأثير التصورات الجاهلية الشائهة للنظام الاجتماعي والاقتصادي للإنسان. هذه اللعنة تحرم الأطفال حنان الأمهات ورعايتهنّ في ظل الأسرة الهانئة، لتقذف بهؤلاء المساكين إلى المحاضن، التي يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النفسي، فيملأ نفسه بالعقد والاضطرابات... وأعجب العجب أن انحراف التصورات الجاهلية ينتهي بناس من المعاصرين إلى أن يعتبروا أن العمل في الرقص للمرأة تقدماً وتحرراً وانطلاقاً من الرجعية، وهو هذا النظام الملعون، الذي يضحي بالصحة النفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض... الأطفال... رجال المستقبل.

ومن ثم نجد النظام الاجتماعي الإسلامي، الذي أراد الله به أن يدخل المسلمون في السلم، وأن يستمتعوا في ظله بالسلام الشامل... يقوم على أساس الأسرة، ويبذل لها من العناية ما يتفق مع دورها الخطير... ومن ثم نجد في سُورَ شتى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقومات التي يقوم عليها هذا النظام.

إن الإسلام أقام نظام الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع. وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطري العميق... وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشل ضعيف مزوّر الأسس لا يمكن أن يعيش.

ولقد عني الإسلام بصيانة الأسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل دخل؛ وحياطتها بكل أسباب السلامة والاستقامة والقوة والثبوت ليقيم عليها بناء المجتمع المتماسك السليم النظيف العفيف.

إن القرآن يبني الأسرة، يبنيها ليشكل منها مجتمعاً يقوم على إقامة دين الله في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في الناس. ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفراداً ويبنيها جماعة، ويبنيها عملاً واقعياً... كلها في آن واحد... فالمسلم لا يبني فرداً إلا في جماعة، ولا يتصور الإسلام قائماً إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط، وذات نظام، وذات هدف اجتماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها. هو إقامة هذا المنهج الإلٰهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض. وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع، وهو لا يقوم في مجتمع إلا في أسرة تعيش وتتحرك وتعمل في حدود ذلك المنهج الإلٰهي. لذلك عني الإسلام بتنظيم شؤون الأسرة، وإقامتها على أساس ثابت من متطلبات الفطرة؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية، وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة والاستهتار بالحرمات، ووهْن الروابط العائلية.

لقد أقام الإسلام تنظيمه للأسرة على قواعد الفطرة. واعتبر هذا الموضوع أساسياً وهاماً، الذي يترتب على تنظيمه جريان الحياة الإنسانية في مجراها الفطري الهادئ الصالح، كما يترتب على انحرافها فساد في الأرض كبير.

لقد حدد الإسلام الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليه الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة، ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف، إلى جانب نظافتها وطهارتها. ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها

تلك المؤسسة الأساسية، والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيهما «وهما الزوجان».

ومما يلاحظ أن القرآن يربط ربطاً دقيقاً بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان، وهو أن هذه التنظيمات الأسرية والأحكام صادرة من الله. وهي مقتضى ألوهيته. فأخص خصائص الألوهية هو الحاكمية، والتشريع للبشر، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم.

والقرآن ما زال يكرر هذا الارتباط الدقيق؛ وينبه إلى هذه الخاصية من خصائص الألوهية. ويكرر كذلك الإشارة إلى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم... وهي إشارة ذات مغزى... فالأمر في هذا المنهج الإلٰهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل، والحكمة المدركة البصيرة... هذه الخصائص الإلٰهية التي يفقدها الإنسان، فلا يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان، ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم، وراح يخبط في التيه بلا دليل، ويزعم أنه قادر، بجهله وطيشه وهواه، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله.

والأمر الآخر الذي يؤكده القرآن ويكرره: هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة، من المناهج الموضوعة حسب النزعات والاجتهادات.

البحث الخامس:

صيانة الأسرة في توجيهات القرآن[1]

إن طبيعة المؤمنة الصالحة وصفتها الملازمة، بحكم إيمانها وصلاحها، أن

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن ص: ١٥٦-١٦٤، لأحمد فايز، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

تكون... قانتة... مطيعة. والقنوت: الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة! وقد وصفها الله سبحانه قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[1]. فسماهنَّ الله قانتات. لم يقل طائعات، لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية... وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة. في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه وظلاله وإيقاعاته.

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها كذلك، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته - وبالأولى في حضوره - فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة - ما لا يباح إلا له هو - بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة. وما لا يباح، لا تقرره هي، ولا يقرره هو، إنما يقرره الله سبحانه «بما حفظ الله».

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها - في غيبته أو في حضوره - ما لا يغضب هو له، أو مما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله.

إن هنالك حكماً واحداً في حدود هذا الحفظ؛ فعليها أن تحفظ نفسها «بما حفظ الله»... والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر. بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر؛ إنه يقول: إن هذا الحفظ بما حفظ الله، هو من طبيعة الصالحات، ومن مقتضى صلاحهن! وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات أمام ضغط المجتمع المنحرف. وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب: «بما حفظ الله» مع القنوت الطائع الراضي الودود.

فأما غير الصالحات... فهن الناشزات؛ من الوقوف على «النَشْز» وهو المرتفع البارز من الأرض. وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية. فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرّد.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

والمنهج الإسلامي لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل، وتعلن راية العصيان؛ وتسقط مهابة القوامة؛ وتقسم المؤسسة إلى معسكرين... فالعلاج حين ينتهي الأمر إلى هذا الوضع قلّما يجدي. ولا بد من المبادرة في علاج مبادئ النشوز قبل استفحاله لأن مآله إلى فساد هذه المنظمة الخطيرة، لا يستقر معه سكن ولا طمأنينة، ولا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين في المحضن الخطير، ومآله بعد ذلك إلى تصدع وانهيار ودمار للمؤسسة كلها؛ وتشرد للناشئين فيها؛ أو تربيتهم بين عوامل هدامة مفضية إلى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية... وإلى الشذوذ... فالأمر إذن خطير، ولا بد من المبادرة باتخاذ الإجراءات المتدرجة في علاج علامات النشوز منذ أن تلوح من بعيد.. وفي سبيل صيانة المؤسسة من الفساد، أو من الدمار، أبيح للمسؤول الأول عنها أن يزاول بعض أنواع التأديب المصلحة في حالات كثيرة... لا للانتقام، ولا للإهانة، ولا للتعذيب... ولكن للإصلاح ورأب الصدع في هذه المرحلة المبكرة من النّشوز.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[1].

واستحضار ما سبق لنا بيانه من تكريم الله للإنسان بشطريه، ومن حقوق للمرأة نابعة من صفتها الإنسانية ومن احتفاظ للمرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكل حقوقها... بالإضافة إلى أن قوامة الرجل عليها لا تفقدها حقها في اختيار شريك حياتها؛ والتصرف في أمر نفسها والتصرف في أمر مالها إلى آخر هذه المقومات البارزة في المنهج الإسلامي... استحضار هذا الذي سبق كله، واستحضار ما قيل عن أهمية الأسرة كذلك... يجعلنا نفهم بوضوح - حين لا تنحرف القلوب بالهوى والرؤوس بالكبر - لماذا شرعت هذه الإجراءات التأديبية أولاً والصورة التي يجب أن تؤدى بها ثانياً... إنها شرعت كإجراء وقائي - عند خوف النّشوز - للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع، لا لزيادة إفساد القلوب، وملئها بالبغض والحنق، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

إنها ... أبداً... ليست معركة بين الرجل والمرأة يراد لها بهذه الإجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهمّ بالنّشوز؛ وردها إلى السلسلة كالقلب المسجور، إن هذا قطعاً... ليس هو الإسلام.. إنما هو تقاليد بيئية في بعض الأزمان نشأت مع هوان «الإنسان» كله، لا هوان شطر منه بعينه. فأما حين يكون هو الإسلام، فالأمر مختلف جداً في الشكل والصورة. وفي الهدف والغاية.. ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾. هذا هو الإجراء الأول... الموعظة... وهذا هو أول واجبات القيم ورب الأسرة. عمل تهذيبي. مطلوب منه في كل حالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1]... ولكنه في هذه الحالة بالذات، يتجه اتجاهاً معيناً لهدف معين. هو علاج أعراض النّشوز قبل أن تستفحل وتستعلن. ولكن العظة قد لا تنفع، لأن هناك هوىً غلاباً، أو انفعالاً جامحاً، أو استعلاء بجمال، أو بمال، أو بمركز عائلي... أو بأي قيمة من القيم، تنسي الزوجة أنها شريكة في مؤسسة، وليست نداً في صراع أو مجال افتخار، هنا يجيء الإجراء الثاني... حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى، ترفع بها ذاتها عن ذاته، أو عن مكان الشريك في مؤسسة عليها قوامة؛ ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾.

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها. فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها. وكانت - في الغالب - أميل إلى التراجع والملاينة، أمام هذا الصمود من رجلها، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه، في أحرج مواضعها!... على أن هناك أدباً معيناً في هذا الإجراء... إجراء الهجر في المضاجع. وهو ألا يكون هجراً ظاهراً في غير مكان خلوة الزوجين... لا يكون هجراً أمام الأطفال، يورث نفوسهم شراً وفساداً.. ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزاً.

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ولا إفساد الأطفال، وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الإجراء.. ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك... فهل تترك المؤسسة تتحطم؟ إن هناك إجراء - ولو أنه أعنف - ولكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[1]...

واستصحاب المعاني السابقة كلها؛ واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفي. ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير. ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها... ويحدد أن يكون ضرب تأديب، مصحوب بعاطفة المؤدب المربي؛ كما يزاوله الأب مع أبنائه، وكما يزاوله المربي مع تلميذه..

ومعروف - بالضرورة - أن هذا الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة. وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدّع. فهي لا تكون إلا وهناك انحراف ما، هو الذي تُعالجه هذه الإجراءات؟

وحين لا تجدي الموعظة، ولا يجدي الهجر في المضاجع... لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر، ومن مستوى آخر، لا تجدي فيه الوسائل الأخرى... وقد تجدي فيه هذه الوسيلة!.

وشواهد الواقع، والملاحظات النفسية، على بعض أنواع الانحراف تقول: إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معيّن، وإصلاح سلوك صاحبه... وإرضائه... وفي الوقت ذاته.

على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المَرَضي، الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم؛ إذْ نحن لا نأخذ تقريرات علم النفس مسلمات علمية، فهو لم يصبح بعدُ علماً، بالمعنى العلمي، كما يقول الدكتور «أليكسي كاريل» فربما كان من النساء مَن لا تحسّ قوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيماً

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

وترضى به زوجاً، إلا حين يقهرها عضلياً! وليست هذه طبيعة كل امرأة، ولكن هذا الصنف من النساء موجود. وهو الذي قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم ويُبقي على الأسرة البقاء في سِلْمٍ وطمأنينة!..

وعلى أية حال، فالذي يقرر هذه الإجراءات، هو الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة؛ وكل تمرّد على اختيار الخالق وعدم تسليم له مفضي إلى الخروج من مجال الإيمان كله.

وهو - سبحانه - يقررها، في جوٍّ وفي ملابساتٍ تحدّد صفتها، تحدد النيّة المصاحبة لها، وتحدّد الغاية من ورائها، بحيث لا يحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس في عهود الجاهلية، حين يتحوّل الرجل جلّاداً باسم الدين، أو حين يتحول الرجل امرأة؛ وتتحول المرأة رجلاً، أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة - باسم التطور في فهم الدين - فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين.

وقد أُبيحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز قبل استفحالها، وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها فورَ تقريرها وإباحتها. وتولّى الرسول ﷺ بسنته العملية في بيته مع أهله، وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك، وتصحيح المفهومات في أقوال كثيرة:

ورد في السنن والمسند: عن معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله ما حقُّ امرأة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تُطْعِمَها إذا طَعِمْتَ، وتَكْسُوهَا إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت**»(١).

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه: قال النبي ﷺ: «**لا تَضربوا إمَاءَ الله**»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج ٤/ ٤٤٦- ٤٤٧، وأبو داود في سننه برقم ٢١٤٢، واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ج ٨/ ٤٣٢، وابن ماجه برقم ١٨٥٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٣٦٠.

فجاء عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن. فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم**»، وقال ﷺ: «**لا يَضْرِب أحدكم امرأته كالعبدِ يجلدها أول النهار، ثم يُضاجعها آخره**» ذكره صاحب مصابيح السنة[١].

وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**» رواه الترمذي[٢].

ومثل هذه النصوص والتوجيهات والملابسات التي أحاطت بها؛ ترسم صورة لصراع الرواسب الجاهلية مع توجيهات المنهج الإسلامي في المجتمع المسلم في هذا المجال. وهي تشبه صورة الصراع بين هذه الرواسب وهذه التوجيهات، في شتى مجالات الحياة الأخرى قبل أن تستقر الأوضاع الإسلامية الجديدة، وتعمق جذورها الشعورية في أعماق الضمير المسلم في المجتمع الإسلامي.

وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حد تقف عنده - متى تحقّقت الغاية - عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات، فلا تتجاوز إلى ما وراءها.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[٣] فعند تحقيق الغاية تقف الوسيلة. مما يدل على أن الغاية - غاية الطاعة - هي المقصودة، وهي طاعة الاستجابة لا طاعة الإرغام. فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة، قاعدة الجماعة. ويشير النصّ إلى أن المضي في هذه الإجراءات بعد تحقق الطاعة بغي وتحكم وتجاوز.

ذلك حين لا يُسْتَعْلَنْ النشوز، وإنما تتقى بوادره، فأما إذا كان قد استعلن، فلا تتخذ تلك الإجراءات التي سلفت. إذْ لا قيمة لها إذن ولا ثمرة.

---

(١) مصابيح السنّة: للبغوي ج ٢/ ٤٥١، برقم ٢٤٣٨، وبرقم ٢٤١٩، قريباً من لفظه، وهو من رواية البخاري برقم ٤٩٤٢، ومسلم برقم ٢٨٥٥.

(٢) الترمذي في سننه برقم ٣٨٩٥، وقال: حسن غريب صحيح.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

وإنما هي إذن صراع وحرب بين خصمين ليحطم أحدهما رأس الآخر! وهذا ليس المقصود، ولا المطلوب... وكذلك إذا رئي أن استخدام هذه الإجراءات قد لا يجدي، بل سيزيد الشقة بُعداً، والنشوز استعلاناً؛ ويمزق بقية الخيوط التي لا تزال مربوطة، أو إذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل إلى غير نتيجة. وفي هذه الحالات كلها يشير المنهج الإسلامي الحكيم بإجراء أخير، لإنقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار قبل أن ينفض يديه منها ويدعها تنهار: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[1].

وهكذا لا يدعو المنهج الإسلامي إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية؛ ولا إلى المسارعة بفصم عقدة النكاح، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار - الذين لا ذنب لهم ولا حيلة - فمؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام؛ بقدر خطورتها في بناء المجتمع، وفي إمداده باللبنات الجديدة اللازمة لنموه ورقيه وامتداده.

إنه يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة - عند خوف الشقاق - فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلاً... يبعث حكم من أهلها ترتضيه، وحكم من أهله يرتضيه، يجتمعان في هدوء بعيدين عن الانفعالات النفسية، والرواسب الشعورية، والملابسات المعيشية، التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين، طليقين من هذه المؤثرات التي تفسد جو الحياة، وتعقد الأمور وتبدو - لقربها من نفسَي الزوجين - كبيرة تغطي على كل العوامل الطيبة الأخرى في حياتهما. حريصين على سمعة الأسرتين الأصيلتين، مشفقين على الأطفال الصغار، بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر - كما قد يكون الحال مع الزوجين في هذه الظروف - راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار... وفي الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين، لأنهما من أهلهما: لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار، إذ لا مصلحة لهما في التشهير بها بل مصلحتهما في

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

دفنها ومداراتها! يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح. فإن كان في نَفسَيْ الزوجين رغبةٌ حقيقة في الإصلاح، وكان الغضب فقط هو الذي يحجب هذه الرغبة، فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[1]. . فهما يريدان الإصلاح، والله يستجيب لهما ويوفق. . . وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم، ومشيئة الله وقدره. . . إن قدر الله هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس. ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا؛ وبقدر الله - بعد ذلك - يكون ما يكون. ويكون عن علم بالسرائر وعن خيرة بالصوالح.

وهكذا نرى مدى الجديّة والخطورة في نظرة الإسلام إلى المرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة، وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية!!. . ونرى مدى اهتمام المنهج الإسلامي بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الإنسانية، ونطلع على نماذج من الجهد الذي بذله هذا المنهج العظيم، وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة - التي التقطها من سفح الجاهلية - في المرتقى الصاعد إلى القمّة السّامقة على هدى الله. الذي لا هُدَى سواه.

البحث السادس:

آداب البيت المسلم[2]

● البيت المسلم هو حلم البشرية، تتجلى ملامحه من خلال ما ذكرناه:

فهو بيت يعرف الله ورسوله ﷺ ويحبهما، ومن يحب أحداً يذكره دائماً، ويروي عنه كل كلمة أو حركة أو عمل، فقراءة القرآن، ودراسة السنة والسيرة

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٢) المرأة في التصور الإسلامي: عبد المتعال محمد الجبري ص: ١٧١-١٩٤، ط. مكتبة وهبة - القاهرة.

وتاريخ الحركات الإسلامية.. ظاهرة ثقافية، ومنطلق أيديولوجي للسلوك والتفكير في الأسرة ذكوراً وإناثاً. ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «**نِعْمَ النِّسَاءُ نساءُ الأنصارِ لم يمنعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقَّهْنَ في الدِّين**» وفيه أيضاً: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فواعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن.

● وقد كان بعض الصحابة يقرأون على «أمّ سعد بنت الربيع» فتصحح لهن أخطائهن، وتصدرت السيدة «أم الخير» الحجازية حلقات وعظ وإرشاد المسلمات بجامع عمرو بن العاص في القرن الرابع الهجري.

● وأكثر من هذا أن «أمَّ شريك الدوسية» كانت تأتي متسللة إلى مكة لتمارس الدعوة إلى الإسلام بين صفوف نساء قريش سراً، حتى ظهر أمرها بمكة، فقبض عليها وسُيرت إلى أهلها.

● والاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ عند كل خلاف أمر متفق عليه، يخضع له الزوجان كما يخضع له الحاكم والمحكوم على السواء، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1].

والأصل في المسلمة أنها على وعي بالإسلام يؤهلها للمشاركة في الرد إلى الله والرسول. قال كعب: نازعتُ عمر بن الخطاب في «المتوفّى عنها زوجها» وهي حامل. فقلت: تتزوج إذا وضعت ولو لم يمض عليها أربعة أشهر وعشر. فقالت أم الطفيل: «لقد أمر رسول الله ﷺ سبيعة الأسلمية أن تنكح إذا وضعت».

● وعلى قاعدة الالتزام بأوامر الله ووصايا الرسول ﷺ تقوم تربية الأسرة، وفي سلوك الصالحين نماذج تحكى وتحاكى وفي الحديث: «**أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم**».

● ونتيجة لهذا الاتجاه؛ لا يجوز أن يخلو البيت من مكتبة إسلامية بها مصحف وشروح له وسيرة النبي ﷺ وأحاديثه، وأحكام الفقه الإسلامي، وتاريخ

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الإسلام وآدابه، وهي مكتبة ليست مهجورة، ولكن كتبها دائماً في متناول الأيدي.

● فيه إدارة منظمة قاعدتها: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[١]. وما دامت القَوَامَةُ للرجل فلا يحل للزوجة أن تخرج من البيت إلا بإذنه. وقد تحرجت سيدة من الذهاب إلى أبيها وهو يحتضر، لغياب زوجها والعجز عن استئذانه، فقال الرسول ﷺ: «**لقد غفر الله لأبيك بما صنعت**» (ذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد في إسناده ضعف).

● والبيت المسلم عش هادئ ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[٢]. حتى في مرحه لا يسرف في الضحك، وكان رسول الله ﷺ يبتسم في معظم الأحيان عندما يفرح، وحيناً يضحك حتى تبدو نواجذه، أي أقوى الأضراس.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ ألينَ النَّاسِ، وأكرمَ النَّاس، وكان رجلاً من رجالكم إلّا أنه كان ضحاكاً بساماً».

● فيه مرح ودعابة، يستعلى بالصبر والرضا بكل ما قضاه الله وقدره، ولهذا لا تجد فيه وجهاً عابساً، وشعاره في البيت والعمل «**وأن تلقى أخاك بوجه طلقٍ صدقةٌ**». وإن تعليق الابتسامة يحل مشكلات كثيرة وبخاصة في المواقف العصيبة، وينعكس أثرها على نفس المبتسم فيتّزن تفكيره، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، وفي الفكاهات الأدبية وأساليب التورية غناء كثير.

● وفي البيت من وسائل اللهو واللعب ما يبني الجسم، ككرة القدم، وبندقية الصيد، وليس فيه النّرْد والورق وما يستعمل عادة في القمار، وفي الحديث الشريف: «**كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون من أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين غرضين (أي حاجتين) وتعليم الرجل السباحة**» أخرجه النسائي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

● والمسلمات راضيات بكل ما شرع الله حتى تعدد الزوجات، ولهذا كنّ نساء النبي يجتمعن معاً كل ليلة في البيت الذي سيبيت فيه الرسول، وأحياناً يتناولن العشاء مع رسول الله ﷺ، ويسمُرْن بعض الوقت ثم تنصرف كلّ منهن إلى بيتها.

● والنكتة البذيئة والتي فيها سخرية بالمنتسبين إلى الإسلام ودعوته... بعيدة عن فم المسلم والمسلمة، فتجريحهم صيحة بفشل الإسلام في تقويم المسلمين وفقدان صلاحيته للحياة.

● والبيت المسلم بسيط في كل أموره وفي تفكير أبنائه وفي تدبير اقتصادياته، وفي التعبد والذكر، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: «ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما».

وليس معنى البساطة رفض ما أنعم الله به على عباده من آلاء ولكن أخذها ببساطة بمعنى ألا تدخل على النفس الخيلاء، بل تهبط بها النعمة إلى الانكسار لله المنعم والتزلف إليه شكراً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

والفراش إذا كان من حرير دودة القزّ، والآنية التي من الذهب أو الفضة.. إسراف ومنكر في البيت المسلم.

وفي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: «نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه». ولم يمنع الإسلام التطريز اليسير بالحرير، ففي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الحرير إلّا هكذا».. وأشار بإصبعيه اللتين تليان الإبهام. يعني نحو ٣ سم عرضاً.

● وتختار المسلمة من حليها الذهبي ما ليس دائرياً ولا حلقات فقد روي نهي عما كان من الحلي محلّقاً.. ولكن هل النهي من باب التحريم أو التنزيه؟ خلاف بين الباحثين فقيل حرام وقيل مكروه. وفي تعدد أشكال المصوغات متسع

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

للاختيار. ولا حرج على ما كانت ميزانيتها لا تسمح إلا بحليّ دائري مغلق لأنها لا تجد غيره رخيصاً حتى يغنيهما الله وتستبدل به ما يوافق السنة، والأعمال بالنيات. وعلى الصاغة المسلمين أن يبتكروا حلياً يتفق مع السنة حتى لا تضطر المسلمة لشراء المكروه الذي صممه اليهود.

وتخرج المسلمة زكاة حليها إن بلغ وزنة عشرين مثقالاً ذهباً = (٤/ ٢٨,٧) درهماً تقريباً، أو مائتي درهم فضة، وذلك لأحاديث وردت في ذلك.

وهل هذا على سبيل الوجوب؟ للعلماء بحوث في هذا ولم يتفقوا أيكون الحضّ على زكاة الحلي للوجوب أم للندب؟ قال بالوجوب: أبو حنيفة وابن حزم، وجمهور المذاهب على غير ذلك، وعلى أن الحض للندب. ولكنها إذا كانت تدخر هذا الحلي، لا لمجرد الزينة، ولكن للانتفاع بثمنه عند الحاجة، فقد انتقل من صورته كحليّ إلى صورة أخرى وهي الادخار لأحد النقدين «الذهب والفضة».

● وقد روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتت النبي ﷺ امرأتان في أيديهما أساور من ذهب فقال لهما رسول الله ﷺ: «**أتحبان أن يسوّركما الله يوم القيامة أساور من نار؟**». قالتا: لا. قال: «**فأديا حق هذا الذي في أيديكما**».

ويدرب الأطفال على الصدقة.. ويضع البيت للصدقات شيئاً من ميزانيته حين لا تجب عليه زكاة حتى ينشأ الأطفال على ذلك.

بل من لم يكن في مرتبه فائض عن حاجته يعمل عملاً - مهما قلّ - ليقدم منه في وجوه البر شيئاً، سواء أكان رجلاً أم أنثى. ففي صحيح البخاري عن أبي مسعود الأنصاري: كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل (يعمل حمالاً: شيالاً) فيصيب المد (مقابل أجرته) فيتصدق به، وإن لبعضهم اليوم لمائة ألف، أي وما يتصدق.

وليس المهم أن تكون الصدقة عظيمة، وإنما على كل امرئ ما يستطيعه. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل**

تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلُوّه - أو فصيله - حتى تكون مثل الجبل».

● وإذا كان الزوج فقيراً ولزوجته ثراء من ميراث أو عمل تعمله أو من هدايا أسرتها فإن من أفضل الصدقات ما تعطيه لزوجها في غير صورة محرجة، ففي الصحيحين عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تصدّقْنَ يا معشر النساء ولو من حليكنّ**»، قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد (يعني قليل المال)؛ وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأْته فاسأله، فإن كان ذلك يجزئ عني؟ وإلا صرفتها إلى غيركم، فقال عبد الله: بل ائتيه أنت. فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ وكان قد أُلقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئُ الصدقة منهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ: «**من هما؟**» قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: «**أي الزيانب هي؟**» قال: امرأة عبد الله. فقال رسول الله ﷺ: «**لهما أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة**».

● **والبيت المسلم نظيف:**

تام التهوية، خال من القمامة. كما في الحديث: «**ولا تتشبهوا باليهود كانوا يضعون الأكبَ (القمامة) في أفنية بيوتهم**».

ومقاومة الحشرات المؤذية كالصراصير وغيرها، وكل ما يبذل في سبيل ذلك من جهد بدني أو مالي، فيه مثوبة من الله، فضلاً عن تجميل البيت وتنظيفه. ففي الصحيحين عن أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل وزغاً في أول ضربة كُتب له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك**».

قال أهل اللغة: الوزغ. العظاة من (سامّ أبرص). و«سام أبرص» اسم للوزغة مركب من كلمتين. ومعنى هذا أن المجتمع كله - وفي مقدمته مجتمع الأسرة - مجند لمقاومة الحشرات الضارة. ويجب أن يتدّرب على ذلك. ففي العصر الأول كان التدريب يدوياً بحتاً، وفي عصرنا هذا تقاوم بالمبيدات الحشرية، أو مصايد الفئران. وفي الحض على أن تكون الإصابة للحشرة من مرة واحدة تدريب ذاتي على كسب صفتي اليقظة والتوازن اللازمتين لإصابة هدفٍ ما، وما أحوج الشخص المثالي لهاتين الصفتين اللتين تشترك في تنميتهما بالمسلم والمسلمة معظم شرائع الإسلام.

ولكي لا تتكاثر الحشرات الضارة نهى النبي عن ترك ما يسقط من الطعام على الأرض عند تناوله، وعن ترك بقايا في الطبق دون أن تؤكل أو تغسل فوراً حتى لا تكون هناك أسباب مساعدة لتكاثر الحشرات وتغذيتها، ففي صحيح مسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث. وقال: «**إذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها وليمِط عنها الأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان**»، وأمرنا أن نسلت القصعة وقال: «**إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**»[1].

ولا شك أن لعق الأصابع الثلاثة يعني التخلص من جرم الطعام والدهنيات واللزوجة التي لو لم يتخلص منها للوّثت أصابعه الثياب وكل ما تمتد إليه يد الآكل من الناس والأشياء. فلما وجدت الملاعق وكثرت المياه وجب أيضاً أن يتناول الأكل بملعقته القدر الذي يستطيع أن يبتلعه، حتى إذا انتهى لم يترك على ملعقته شيئاً للصراصير وما أشبهها، أو شيئاً يؤكسد الملعقة ويعرضها للصدأ السريع.

وإذا كان له من خدم وجب عليه مساعدته وعدم إرهاقه بالأعمال الشاقة، فالمسلم رقيق المشاعر ذو قلب يتحرك بالشفقة على من سيحمل ما على المأدبة ويغسل الآنية.

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٠٢، وعزاه لأحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه. انظر الإرواء رقم ١٩٧٠.

● **والبيت المسلم فسيح:**

ففي دعاء النبي ﷺ: «**اللهم وسِّع لي في داري وبارك لي في رزقي**»، وفي صحيح ابن حبان عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء**» **وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء والمركب السوء، والمسكن الضيق**» وروى أحمد والحاكم مثله.

وفي الإسلام لكل طفل فراشه الخاص. فقد أمرنا النبي أن نفرق بين أولادنا في المضاجع فقال ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**» رواه أبو داود.

● **والعمل يتوزع في البيت بين الجميع:**

ومن أجمل ما روي في هذا الشأن عن علي رضي الله عنه أنه كان يقسم عمل البيت بين أمه وزوجته، فيقول لأمه «فاطمة بنت أسد»: «اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك الداخل: الطحين والعجين» ولا يزال هذا التنظيم في الصعيد الأعلى بين البيوت المحافظة. فعلى الشابات ما كان من الأعمال داخل البيت، أما التسويق والاتصال بخارج البيت فلكبيرات السن، وهذا أصون للعفاف.

● **البيت المسلم ورع:**

يخشى أبناؤه الحرام كما يخشون الثعبان الهائج، والمسلمة توصي زوجها دائماً ألا تجعل في كسبه لها ولأولادها خردلة من الحرام، حتى ولو باتوا على الطّوى. فهي من أجل هذا لا ترهقه بمطالب العصر التي لا قبل لراتبه أو مجال كسبه بتوفيرها، صابرة قانعة بما رزق الله.

إنه الحس الديني الصادق، واليقين بيوم الجزاء... والالتزام بما رواه البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير «أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة» قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما مُشَبَّهَاتٌ**

لا يعلمها كثيرٌ من النَّاسِ. فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهات فقد استبرأ لدينهِ وعِرْضِهِ، ومَنْ وقع في الشُّبُهات كراعٍ يرعَى حولَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يُوَاقِعَهُ، ألاَ وإنّ لكلِّ مَلِكٍ حِمىً، ألاَ وإنَّ حِمَى اللهِ في أرضهِ محارمُهُ، ألاَ وإنّ في الجسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فسَدَتْ فسَدَ الجسَدُ كلُّه؛ ألاَ وهي القَلْبُ»!

● **والبيت المسلم متواضع في غير ذلة:**

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١). ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

لا يعرف الخيلاء والكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٣) ولا تستقبح المسلمة أن تحمل بيدها متاعها وتعود بطعامها تحمله بنفسها من السوق إن قدرت على هذا، لأن النبي ﷺ يقول: «**صاحب الشيء أحق بحمله**».

● **لا يسمح فيه لتارك الصلاة بالإقامة:**

إلا الحائض والنفساء، ويضرب الطفل تأديباً له على تركه الصلاة، كما يضرب على تركه واجبه المدرسي... «**مروهم بها لسبع، واضربوهم عليها لعشر**» والطفل الذي ينشأ فيجد كل من في البيت يصلي سيعتاد الصلاة ما لم تتخطفه بيئة الشارع العفنة.. ولهذا فإن المجتمع المسلم لا يسمح - حين يوجد إن شاء الله - بترك إنسان لا يصلي دون أن يوقع عليه أشدُّ العقوبات وهي الإعدام إن استتيب ثلاثاً فلم يتب. وقد كانت المجتمعات الإسلامية في القديم؛ لا تسمح لتارك الصلاة أن يعيش بينها لأنه مثار لعنة الله عليه وعلى من معه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٤). ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾(٥).

أليس من أفجر الفجور أنه عندما توجه إلينا الدعوة للقاء عظيم كملك أو

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٥) سورة طه، الآية: ١٣٢.

إمبراطور نسارع إلى لقائه قبل الموعد المحدد للمقابلة في أبهى زينتنا. والله قد حدّد لنا مواعيد لقائه وأذن المؤذن للتنبيه على أن الله في انتظارنا. ثم نرفض نحن المقابلة لملك الملوك ذي الجلال والإكرام؟!

إن كلمة «سوء أدب» منّا، وكلمة «أفجر الفجور» أقل دلالة على وصف تارك الصلاة يسمع أو يعرف أن الله يناديه فلا يذهب إليه.. ألا وإن حلم الله على هؤلاء التاركين للصلاة لأعظم من أن يمكن تصويره.

وللصلاة أحكامها السهلة التي لا بد للمسلمة من التعرف عليها في كتب مثل «العبادات في الإسلام» للدكتور محمد محمد إسماعيل عبده. أو فقه السنة للشيخ سيّد سابق. وما أجمل أختاً كانت تلبس ملابس صلاتها وتأخذ زينتها وكأنها ذاهبة إلى حفل وتقول لي: ألست تقرأ في القرآن: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] إن الأمة المتزنة الرشيدة ذات الخلق الرفيع تلك التي تتحدث عنها الأمم معجبة، لا يتم لها ذلك إلا أنْ يكون أفرادها على مستوى رفيع من الفضيلة والاتزان والرشاد، وعملية الصلاة في اليوم خمس مرات عملية مراجعة فردية لأعمال المصلي صالحها وطالحها يستغفر الله فيها من الخطأ والمعاصي فيقلع عما هو فيه من خطأ. وبهذا يتخلص المجتمع من المفاسد الخلقية ذاتياً، دون حاجة إلى سلطان شرطة الآداب، أو يحمد الله ويستزيده من التوفيق في عمله الصالح المُجْدي لأمته وأسرته أو لشخصه.

ومقياس الرجل النظيف أو المرأة النظيفة خلقياً وقلبياً.. هو الصلاة.. فغير نظيف من ترك أو تركت الصلاة. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول: ذلك يبقي من درنه؟**» قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**».

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

● **والمرأة المسلمة عفيفة القلب:**

فهي لا تطمع في أن ينظر إليها أحد، سواء أكان صالحاً أو طالحاً. بل تكره أن يتطلع إليها الرجال، كما قالت فاطمة لأبيها محمدﷺ حين سألها: «**أي شيء أحب إلى المرأة؟**» فقالت: «ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل». فضمها إلى صدره مسروراً وقرأ قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

وقد وصف البخاري صورة المسلمة تحترس من رؤية الناس لها في طريقها من وإلى المسجد. فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لقد كان رسول اللهﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات في مروطهنّ، ثم يرجعن إلى بيوتهنّ ما يعرفهنّ أحدٌ».

● وقد أوصد الإسلام الذريعة إلى الزنا وانتشار الانحلال، وذلك بتحريم التبرج وهو كشف المرأة عن مفاتنها، واستثارة الرجل بحديث منكسر، أو نظرة خائنة، أو حركة مثيرة، أو ثياب داعية إلى التفكير في خيانة الشرف، كالثياب الكاسية العارية، أي الشفافة أو التي تكسو الجسم ولكنها تجسم كل أعضائه حتى لكأن المرأة عارية.

● **والبيت المسلم منارة للهداية:**

هذا لا يتأتى ممن لم يجعلوا وظيفتهم في الحياة الهداية ويكونوا في أنفسهم مهتدين، وعندما قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾(٢) عقّب على هذا بقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾(٣).

وذِكْرها يعني مراعاة أحكامها، كما يعني ذكرها للناس بالبيان والنشر. ولا شك أن هذا يحتاج التدريب وتبادل التجارب بين أفراد الأسرة وأصدقائها المتدينين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٤.

● **هذا هو البيت المسلم!!**

فهو بيت ليس منعزلاً عن المجتمع، ولكنه النقطة التي تقع وسط الدائرة التي لا تزال تتسع على قدر ما ييسر الله لهذا البيت المؤمن. حتى يتسع للناس جميعاً كبيت رسول الله ﷺ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

obeikandl.com